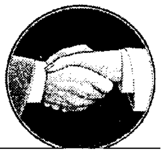

المقابلة مع الكبار !!

على الرغم من أن الكبـار لديهم القـدرة على توجيه معظم نواحى حياتهم إلا أنهم عندما يلتحقون بفـصـول تعليم الكبـار فـإنهم يعـودون إلى أحـوال التلاميـذ الصغار ، حيث الاعتمـاد على الآخـرين ، فيجلسون أمام المدرس ، ويشبكون أيديهم فى أدب ، ويقـولون له : «هيّـا ، علّمنا» ، وتتـضـاعف المشكلة عندما يفترض المدرس أن ذلك الذى يحدث أمامه أمر حقيقى ، ويشرع فى تعليمهم كما لو كانوا أطفالا .

★★ الكبار الصغار !!

عندما أنشئت المعاهد التعليمية الرسمية فى المجتمعات الحديثة كانت من أجل تعليم الأطفـال والشبـاب ، ولم يكن هناك – وقت إنشائهـا – سـوى نموذج واحد لتعليم الكبار ، وهو نموج علم أصول التدريس :

PEDAGOGICAL MODEL ، وهذا النموذج يلقى بالمسئولية كلها على عـاتق المدرس ، وعندمـا بدأ خـبـراء علم النفس فى دراسـة الظواهر التعليمية – فى بداية هذا القرن تقريبا كانوا فى الحقيقة يدرسون ردود الفعل نحو التعليم ، وكلما اكتشفوا المزيد عن الأسلوب الذى يمكن أن يتحكم به المدرس فى ردود أفعال المتعلمين أصبح التدريس والتعليم فى نطاق التحكم بصورة أكبر ، وبعد ذلك ، بدأ تنظيم تعليم الكبار بطريقة هادفة ومنتظمة – وذلك فى الربع الأول من القرن العشرين – وكان علم أصول التدريس هو النموذج الوحيد الذى يطبقه المدرس فى فصول تعليم الكبار وكانت النتيجة – حتى وقت قريب– هى أنه يتم تعليم الكبار وكأنهم أطفال ، ونعتقد أن

هذه الحقيقة هى المسئولة عن المشكلات العديدة التى يواجهها المعلم عندما يقابل الكبار فى فصول التعليم الخاصة بهم ، مثل انخفاض الدافع للتعليم وضعف الأداء .

وبعد ذلك دخل التدريب العملى كتخصص مستقل فى حركة تعليم الكبار – بعد نصف قرن تقريبا – وكان هذا النموذج هو الوحيد المتاح أمام المدرسين والمدربين .

وهذه بعض الملاحظات التى سجلها أحد الباحثين حول لقاء الكبار فى فصول التعليم ، أو عن الكبار كمتعلمين وعلاقة المدرس والمدرب بهم ، فالكبار لديهم حاجة إلى معرفة السبب الذى يجعلهم يتعلمون شيئا ما ، ويقول الباحث : «إن الكبار يقضون وقتا طويلا ، ويستنزفون طاقة كبيرة فى سبيل اكتشاف الفوائد التى يمكن أن تعود عليهم من جرّاء تعلم شئ ما ، واكتشاف الأعباء التى تنتج عن عدم تعلمهم ذلك الشئ قبل أن يصبروا عن رغبتهم فى الجلوس أمام المعلم ؛ ولذلك فإنه من المعروف الآن – أن أحد المهام الرئيسية التى تقع على عاتق المعلم الذى يقف أمام الكبار فى الفصل هو تعريفهم بأهمية التعليم ، وبمدى حاجتهم إلى المعرفة .

★★ مشكلة المدرس مع الشخصية المستقلة :

يتمثل تعريف علم النفس للإنسان البالغ ADULT فى أنه : الشخص الذى استطاع أن يصبح مسئولا عن حياته الشخصية ، ومسئولاً عن اتخاذ قرارته ، وقادراً على تحمل جميع النتائج والتبعات .

وعندما يدرك المدرس فى فصول تعليم الكبار معنى هذا المفهوم الذاتى فإنه يعرف تماما أن هؤلاء الذين يجلسون أمامه قد نضجوا ، بحيث أصبحت هناك حاجة نفسية عميقة فى داخلهم لأن يراهم الآخرون ويعاملوهم على أنهم قادرون على تحمل مسؤلية أنفسهم .

وهنا تبرز المشكلة الخاصة أمام المدرس ، وذلك أنه على الرغم من أن الكبار لديهم القدرة على التوجيه الذاتى لمعظم نواحى حياتهم - كعمال وأزواج وآباء - إلا أنهم عندما يلتحقون بفصول تعليم الكبار ، فإنهم يعودون إلى أحوال التلاميذ الصغار - فى المدرسة الأولية والابتدائية - حيث الاعتماد على الآخرين ، ويجلسون أمام المدرس ، ويشبكون أيديهم فى أدب ، ويقولون له : «هيا علمنا»

وتضاعف المشكلة عندما يفترض المدرس أن ذلك الذى يحدث أمامه أمر حقيقى ، ويشرع فى تعليمهم كما لو كانوا أطفالا إنه بذلك يضعهم فى صراع داخلى بين هذا الوضع - حيث المتعلم يساوى تماما الشخص التابع الذى يعتمد على غيره ولا يتمتع بأى نوع من الاستقلال - وبين حاجتهم النفسية الأعمق فى أن يكونوا أصحاب الرأى والتوجيه الذاتى فى حياتهم الخاصة والعامة - بما فى ذلك الأوضاع الجديدة داخل الفصل ، وقد تابع المدرسون الطريقة التى يعالج بها معظم الكبار ذلك الصراع ، ووجدوا أن الانسحاب من الموقف هو المخرج الوحيد والرئيسى لهذا العلاج ، حيث يحاولون به إزالة أسباب الصراع من جذورها .

وقد اجتهد معلمو الكبار فى البحث عن حل إيجابى لهذه المشكلة ووضعوا استراتيجيات لمساعدة الكبار على التحول السريع من رؤية أنفسهم كمتعلمين تابعين معتمدين على غيرهم إلى أن يصبحوا متعلمين ، ويمتلكون القدرة على توجيه حياتهم الشخصية ، بعد أن سيطر عليهم الشعور بفقد هذه القدرة بين جدران الفصل الدارسى أمام مدرس شاب قد يكون أصغر من بعضهم فى السن ، أو أقل من معظمهم فى مجال الخبرة العامة بشئون الحياة .

★★ من أوراق مدرس يعلم الكبار :

كتب أحد المدرسين نتائج مقابلاته المتكررة مع الكبار فى فصول الدراسة من واقع خبرته التى اتسعت وزادت تنوعا واختلافا ، وأصبح رصيدها يؤثر تأثيرا كبيرا - كتب هذه الملاحظات المهمة :

- إن الكبار يجلبون معهم - إلى الفصل الذى يتعلمون فيه - خلفية واسعة من الخبرات التى تعتبر فى حد ذاتها مصدرا غنيا للعديد من أنواع التعليم سواء لهم أو لغيرهم أيضا ؛ ولذلك ينبغى أن يتزايد التركيز فى تعليم الكبار على استخدام أساليب التعليم التى تعتمد على الخبرة ، مثل:

طرق المناقشات ، وتمرينات حل المشكلات ، وهى الأساليب التى تستفيد من رصيد الخبرات والمعارف المتراكمة لدى المتعلمين ، أو استخدام أساليب مثل : المحاكاة والممارسات العملية الميدانية ، وهى الأساليب التى تزيد من رصيد خبرات المتعلمين من خلال عمليات التحليل .

- يتميز الكبار بأن لديهم قاعدة عريضة من الخبرات التى تضفى على الأفكار والمهارات الجديدة معانى أعمق وأوسع وأكثر ثراءً خصوصا فى فصول التدريب العملى لتطوير الكفاءات وفعالية الأداء ، وكلما كانت العلاقة بين القديم والجديد أكثر وضوحا فى ذهن المتعلمين كان التعلم أكثر ثباتا وبقاء واستمراراً ، وهذا يجعل مهمة المعلم أكثر سهولة ويسرا .

فإذا وقفت فى الفصل أمام مجموعة من الكبار - خاصة إذا كانت تضم أعمارا شتى - فإنه من المتوقع أن يكونوا على درجات متفاوتة من الاختلاف فى الاهتمامات والقدرات والخلفيات وأنماط التعلم أكبر كثيرا مما يمكن أن يكون بين أى مجموعة من الشباب ، ومن هنا ينبغى أن يتم تعليم الكبار بالاعتماد الأساسى على طريقة التعلم ذات الصبغة الفردية .

- إن توافر قدر كبير من الخبرات قد يشير ضمنا إلى احتمال وجود بعض النتائج السلبية ، وذلك أن هذه الخبرات تجعل لدى الناس عادات وتحيزات فكرية معينة ، وتدفعهم لوضع آراء وافتراضات مسبقة ، وتجعلهم أقل انفتاحا على الأفكار الجديدة التى يطرحها عليهم المعلم ، ولذلك فإن بعض المعلمين يلجأون إلى طرح تدريبات على الكبار تتضمن أساليب التفكير الإبداعى ، وذلك خلال أوقات التدريس ؛ لأن مثل هذه التدريبات تساعد المدرس على توصيل مادته إلى الكبار بسهولة ، وتجعلها أكثر فائدة وثباتا ، وتجعل التحصيل ميسورا لدى الدارسين .

ويجدر بنا أن نتذكّر جيدا مدى أهمية الفروق فى نوعية الخبرات المتوافرة لدى الكبار ، وإذا كان بعض الشباب لديهم خبرات معينة - مثلهم فى ذلك مثل الكبار - إلا أنه من المؤكد أن معظم الكبار لديهم هذه الخبرات ، ولذلك فإنهم ينظرون إلى الخبرة نظرة مختلفة : إنها المصدر الأساسى لهويتهم فى الحياة .

أما الخبرة بالنسبة للشباب فهى مجرد تجارب تمر بهِم بينما تعنى الإنسان نفسه بالنسبة للكبار . من هنا فإن المدرس الذى يعبر عن الاحترام والتقدير لخبرتهم ، بل ويحاول أن يستفيد منها كمصدر لتعليمهم فإنهم يشعرون بأن ذلك ليس مجرد رفض لخبراتهم ، وإنما هو رفض لهم كأشخاص .

- يبدى الكبار رغبتهم فى التعلم عندما تظهر فى حياتهم حاجة ماسة إلى أن يعرفوا ، أو أن يكونوا قادرين على العمل والأداء بطريقة أكثر فعالية وإشباعا ، بينما يرى بعض المعلمين أن الناس يبدون رغبتهم فى التعلم عندما يخبرهم شخص ذو سلطة ما (مدرس أو رئيس مباشر) بأن عليهم أن يتعلموا لأن ذلك خير لهم وفى صالحهم ، أو يكون ذلك هو طلب الشخص ذى السلطة المشار إليه .

وهذا يعنى ببساطة أننا ننسى فى لحظة ما أنهم « كبار» وننتزع منهم

حاجتهم لأن يكونوا أصحاب الرأى والتوجيه المستقل . الأمر الذى يجعل رد فعلهم يميل إلى الضيق وأحيانا المقاومة . إن المدرس يمكن أن يواجه الكبار بطريقة أفضل إذا تم ذلك عن اقتناع وطواعية .

إن التغيرات التى تطرأ على حياة الناس تعتبر من أغنى المصادر للاستعداد والقابلية للتعلم ، فعندما تواجهنا ضرورة أداء مهمة ما فى مراحل النمو والتطور . فإننا نصبح على استعداد تام لتعلم كل ما يتعلق بتلك المهمة ، ويطلق على قمة الرغبة فى تعلم تلك المهام :

«لحظة القابلية للتعلم **TEACHABLE MOMENT**» .

- يدخل الكبار عملية التعلم بتركيز شديد حول مهام العمل والحياة، بينما تعليم الأطفال والشباب مشروط بما تمليه عليهم مدارسهم من تعليم .

وينظر هؤلاء الصغار إلى التعليم على أنه عملية تحصيل المادة العلمية الخاصة بموضوع معين وبطريقة تضمن لهم فى النهاية اجتياز الامتحان، وتنتهى مهمتهم بمجرد اجتياز ذلك الامتحان بينما يتطلب تعليم الكبار من المدرس أن ينظم محتويات المنهج حسب مهام الحياة واحتياجات العمل ، وهذا المفهوم هو الذى يجعل المدرس شخصا مقبولا لدى المتعلمين الكبار ، حيث يصبح الارتباط بينهما ارتباطا عمليا ومفيدا وإيجابيا .

- يتم تحفيز الكبار على التعلم من خلال محفزات داخلية وخارجية ، أما الصغار فيتم بصفة أساسية ونهائية أيضا من خلال محفزات خارجية مثل : ضغوط الآباء والمدرسين ، والمنافسة لتحقيق أعلى الدرجات والحصول على الشهادات الدراسية وما إلى ذلك . أما الكبار فيستجيبون للمحفزات الخارجية ، مثل زيادة الأجور والترقية ، وتحسين ظروف العمل، ولكن بشرط أن يتحقق لهم درجة من الإشباع والرضا الذاتى . إلا أن هناك محفزات أخرى داخلية لها أثرها وثقلها أيضا ، مثل : الحاجة إلى احترام الذات وتوسيع دائرة المسئوليات ، وحيازة القوة ، وتحقيق الإنجاز، ويشير

ذلك إلى أنه من الضرورى أن يركز المدرس فى علاقته بالمتعلمين الكبار على الرغبة فى تحقيق التقدم الوظيفى جنبا إلى جنب مع إثراء الحياة ذاتها .

- على الرغم من أننا نعرف أن الكبار يشاركون فى التعلم - لأسباب متعددة - فإن الحقيقة المعادلة لتلك المعرفة هى أن التعلم - بالنسبة لمعظم الكبار - لايعد فى حد ذاته مكافأة ، فالكبار الذين ينشدون خبرة التعلم يفعلون ذلك بصفة أساسية - فى ٨٠٪ أو ٩٠٪ من الوقت - لأن لديهم حاجة ملحة للمعرفة أو المهارة المنشودة ، إن التعلم بالنسبة للكبار ما هو إلا وسيلة لتحقيق غاية ، وليس غاية فى حد ذاتها .

- يحتاج المتعلمون الكبار إلى اكتساب القدرة على أن يجعلوا الأفكار الجديدة متلائمة مع ما يعرفونه بالفعل ، وذلك فى حالة ما إذا كان الأمر يتطلب منهم معرفة واستخدام المعلومات الجديدة ، كما أنهم يميلون إلى تعويض البطء فى مهام التعلم الحركية والنفسية بالمزيد من الدقة ، والقليل من محاولات التجربة والخطأ .

- وينظر الكبار - أيضاً - إلى الأخطاء التى يقعون فيها نظرة شخصية، وبذلك تزيد من احتمالات تأثيرها على احترامهم لأنفسهم .

وهذا يجعلهم يحاولون تطبيق الحلول المجربة من قبل ، وعدم الإقدام على المخاطر ، وهناك ما يدل على أن الكبار سيسيئون تفسير الأثر الرجعى للتطورات التى تحدث لهم خلال مرحلة التعليم .

- تعمل نظريات التعلم والتدريس للكبار بشكل أفضل إذا نظرنا إليها على أنها أحد الموارد ، وليس باعتبارها شيئا جامدا أو باعتبارها حجر رشيد ، ولعل النظريات الأربع المؤثرة حاليا وهى ، الإنسانية ، والسلوكية ، والمعرفية ، والتطورية تعتبر الأكثر فائدة عندما تتواءم مع مهمة تعلم الكبار.